فلاديمير ليدن

الشيخ والغليون

كاتب القصة

فلاديمير ليدن هو احد ابرز الكتاب السوفيات المعاصرين، له العديد من الروايات والقصص والحكايات، وقد ظهرت اولى مجاميعه عام ١٩٠٨ ، ونشر قصته المترجمة هذه وهو في الثمانين من عمره . وقد كتب دراسات نقدية عن مشاهير الكتاب السوفيات امثال غوركي وتولستوي وفيرسايف وبرشكفين ، كما كتب عن بعض الكتاب الاوروبيين امثال هنري باربوس ورومان رولان وستيفان زفايغ ..

وقد حاضر طويلا في اكاديمية غوركي للآداب في موسكو فأسهم في تكوين الكثيرين من الادباء الشبان .

وقف فاسلوك عند المدخل فخرجت ميلا وليلي .. وحيتاه « صباح الخير يا فاسلوك » .

تناول الغليون من فمه وأجاب : « صباح الخير ايتها الطيور الراقصة » .

ضحكتا واخذتا تركضان وتقفزان برشاقة ، ثم التفتت احداهما لتقول « الى اللقاء » .

بعد انتهاء الدوام ، كانت ليلي هي الكبرى فهي في الصف الثالث ، وميلا في الصف الاول .

كان تيكون فاسلوك في شبابه صانعا للسفن في الحوض البلطيقي في لينغراد ، ولكن احيل على التقاعد فذهب الى موسكو ليعيش مع ولده المهندس في وزارة التجارة البحرية ، كان الولد اعزب طالما الح عليه فاسلوك بالزواج لكنه كان يرفض باصرار . فعاشا وحيدين. وكان الكسي (الولد) قريب الشبه بوالده ، فهو طويل ، مندفع وجريء .. يفيض حيوية .

وصل تيكون فاسلوك موسكو فأخبر ولده بانه اشترى بيتا ريفيا من احدى الارامل . وكان البيت جميلا ، وتيكون لا يحب السكن في المدينة لانه اعتاد على حمل الخشب . اما العمل بالاحجار والكونكريت فانه لا يروق له .

عاش فاسلوك ست سنوات في البيت الريفي وسط الغابة . كانت الاشجار ترتدي لباسها الاخضر في كل ربيع وتنزعه في الخريف لاجله لانه كان يعيش وحيدا في الغابة . وفي الشتاء يقوم بنفض طبقات الثلج على الاغصان ، فتبدو اكف اشجار التنوب ممتدة نحوه .

لم يهتم فاسلوك بسيقان الاشجار واوراقها اكثر من اهتمامه باجزائها العجيبة التي تمتد تحت التربة والتي لم يرها الانسان قط . الجذور التي تزود السيقان بالغذاء والحياة، وكان لكل جذر خصائصه التي تميزه عن غيره . فجذر شجرة الصرع يشبه الافعى أو ربما الفول الخشبي ، ذلك المخلوق الذي لم نقرأ عنه الا في الكتب القديمة . لكنك تستطيع تخيله اذا أعملت فكرك واستطعت ان تخلق في عالم الخيال على ان تضع في ذهنك العينين الجاحظتين لمخلوق يعيش في الغابة .

يحمل فاسلوك عصاه الغليظة ، ويرفع حقيبته فوق كتفه العريضة ، ويبدأ جولته في الغابة .. بقامته الفارعة الطول وعينيه الزرقاوين وشعره الرمادي كالتاج حول بقعة الصلع في منتصف رأسه ، كثيرا ما ظنه البعض باحثا نباتيا يبحث عن بعض الوصفات الطبية .. ومرة سألته فتاة جريئة بين فتيات كن يعملن في مصنع للغزل :

ـ عم تبحث ايها الجد ؟

ـ عن عشب سحري ، دواء للحب .

سألته بعد ان تملكها الفضول :

ـ كيف يعمل هذا الدواء ؟

ـ تصوري انك احببت فتى جميلا لا يحبك ، تخلطين جزءا من مسحوق هذا العشب وتضعينه بالحليب او البيرة ، فاذا شربها اصبح ملكك والى الابد ، ويلصق كما الارقطيون ولا ينفصل ابدا .

ضحكت الفتيات وسرن ، وبقيت الفتاة التي سألته برهة ربما كانت محتاجة لمثل هذه الجرعة . ضحك تيكون بعد ان انصرفن، واذ شعر بوحدته ، مد يده الى حقيبته يتحسس الاداة الصغيرة التي يستطيع بواسطتها استخراج نبات الوعر مفتشا عن الجذر الذي يروق له .

كانت غرفته الكبيرة مليئة بالهياكل الصغيرة للفيلان الخشبية وبعدد كبير من مخلوقات أخرى كجنيات البحر ذات الشعر المتدلي والذراعين المفتوحتين كما لو كانت تسبح وتوقفت فجأة . في تلك الفترة قصد تيكون كثير من الناس ليتعرفوا على ما يصنعه في الغابة . وزارته اخيرا امرأتان في منتصف عمرهما .. كانتا متحجبتين قالتا انهما من اعضاء « جمعية الحفاظ على الطبيعة » . رأتا اعماله فأعجبتا بها ودعتاه للاشتراك في المعرض .. سألتاه عن جذر حارتا في معناه .. فأجاب « الحب » الا تريانه انتما ؟

تمتد من الجذر اسهم في كل الاتجاهات ، تشبه الى حد بعيد

قلبه ومشاعره .. فلم تبديا اي اعتراض على الاسم .

يبدأ العرض في بداية الشتاء .. وكان تيكون منهمكا يتجول في الغابة مع حقيبته .. وبدأت الغابة بالانسلاخ وتساقطت الاوراق ، فبدت خلال الافق الازرق اكثر جمالا .. لان الاوراق قد تساقطت تماما.

ـ أأنت ساحر ايها الجد ؟

ـ اني امبراطور الغابة ، ومملكتي الاخلاد (جمع الخلد) والجذور التي تعيش في التربة ، ماذا لو اعطيتك خلدا ؟ ما عليك الا ان تطعميه رفاقة بسكويت كل صباح فتكون وجبته الوحيدة .

رحبت الفتاة بالفكرة . لكن امها اخذتها ومشت قائلة ان الخلد سوف يأكلهم مع كل ما في البيت ، لكنها ظلت تتلفت الى الشيخ بعينيها الفيروزيتين . لم ترغب الانفصال عن امبراطور الاخلاد والجذور الارضية ، لكن امها ارغمتها على ذلك .. كانت تعتقد ان تيكون مصاب بمس في الجنون .

ذهبت الاختان الصغيرتان الى تيكون عند عودتهما من المدرسة ، فوجدتاه جالسا على المنضدة وسط مناشير صغيرة وادوات أخرى مع عدد كبير من الجذور الجديدة التي تنتظر اعادتها الى الحياة بفضل مخيلته الفاتنة كما يحيي بعض الازهار والحيوانات الصغيرة . كانت فروع احد الجذور ممتدة بصورة مستقيمة وبزوايا حادة اطلق عليه « الحنان » لان الفروع تشبه الى حد كبير ايدي المخلوق الحنون ، التي تمتد بصورة مستقيمة الى الخارج لتحتضن مخلوقا يحتاج الى الحنان والعطف .

قالت ليلي :

ـ جئنا .

تقدمتا نحو المنضدة ، كان يرتدي نظارات طبية شدت بطوق في مؤخرة رأسه ، فقد ضعفت عيناه بتوالي السنين . أمسك جذرا وراح يقلبه بيديه الكثيرتي العقد ، محاولا ايجاد الاسم المناسب له ، فسأل الطفلتين عن طبيعته وعن اسمه .

درستا الجذر بدقة ثم قالت ليلي بتمرد « طير صغير » .

فأجاب :

ـ لا ، فأرة تمر .

لم تر ليلي فأرة تمر في حياتها .. لكنها قالت « ربما » ...

اخذ الجذر واجرى عليه بعض التعديلات بسكين حادة الشفرة ، فبدا كفأرة تمر حقيقية . كان على المنضدة زوج من العيون الزجاجية لهما بؤبؤان بنيّان . فأحدث خدشا صغيرا ليضع فيه احدى العينين . وقال :

ـ انكما لا تعرفان الكثير عن الطبيعة ، ولكن يجب ان تعلما بأن الطبيعة حية ، والاشجار تتحادث ولديها ما تقوله ، ومن الممكن ان تتشاجر ، ليتقرر عند نزع الاوراق ، اذ يأتي الحور في المقدمةوبعده القيقب ثم الحور الرجراج ثم البلوط .. تبدأ اوراقها بالتساقط مع حلول الصباحات المتجمدة ، وتستطيعان رؤية علامات اسنانها .

ـ ليس مؤكدا ؟ سألت ليلى متشككة .

ـ بالطبع ، عندما تأخذان ورقة ، لنفرض انها للحور الرجراج والبلوط ، سوف تريان انها قد اكلت من الاطراف ، فالجماد له اسنان صغيرة كأسنان السنجاب .

قالت ليلي بثقة « ان الاشجار لا تستطيع ان تتكلم .. انها لا تملك لسانا واذا فقدت لسانك فلن تتكلم ابدا » .

ـ ماذا تقصدين باللسان ؟ هل استطعت ان تنظري ما بداخل شجرة ؟ اؤكد لك ان لسان البلوط اكبر بكثير من لسان البقرة ، والفرق الوحيد بين الاثنين هو ان شجرة البلوط لا تحرك لسانها ، وهي قليلة الكلام . اما الحور الرجراج فهو ، على العكس ، مهذار ، كثير الكلام كأنه طائر العقعق .. وبهذا لا يحترمه الناس . اما البلوط فيستطيع البقاء عشر سنوات في الماء يزداد قوة ، فيصبح بصلابة الحديد ، ولهذا يستخدم في صناعة هياكل السفن في القطبالشمالي. ان هياكل سفن مقاطعة فوكاس تصنع من خشب البلوط والا فان الثلج يحطم الخشب ، ولذلك هلك سيدوف لانه قام ببحث في القطب الشمالي ماشيا على الاقدام ، ولو بقي في مقاطعة فوكاس لما هلك، ورغم تحطم السفينة بالجليد ، وصلت سواحل المقاطعة .

تحدث تيكون للفتاتين كما لو كانتا تعلمان كل شيء عن بعثة سيدوف وعن هياكل السفن والقوارب الشراعية التي بناها .. رغم قدم هذه الاشياء لان الملاحين الصغار تدربوا في الخارج على سفن كبيرة تحتاج عدة ملاحين .

قال تيكون :

ـ هنا تعيشون ، ثم استطرد ، اذا اصبحتم اصدقاء للطبيعة فسوف تعاملكم كالام الحنون ، اما اذا تجاهلتموها فسوف تصفعكم بقوة .

ضحكتا ، لانهما لا تعرفان اين موقعهما ولا تعلمان عمن يتحدث ، لكنهما تجدان ان الاصغاء اليه جد ممتع ، حتى ولو لم تفهما كلماته ، وقد وقفتا جنبا الى جنب تتأملان بقعة الصلع الوردية في رأسه وتاج الشعر الرمادي الذي يحيطها ، والطوق الذي يمنع نظاراته الخضراء من السقوط ، والجذر الذي دبت فيه الحياة ، بعد ان اصبح فأرة تمر طبيعية رغم انهما لم تربا قط واحدة حية .

ناشدته ليلى :

ـ ارجو ان تأخذنا الى الغابة ولو مرة واحدة (واضافت) لا نستطيع المجيء صباحا ولكن بعد انتهاء الدوام .

رفع تيكون نظاراته ، ثم نظر اليها ، بوجهها الصغير البريء والفضولي ، وانفها الصغير وقد انتشر عليه النمش الذي يكثر في الصيف ، ولكنه كان موجودا رغم انهم في الخريف ، ونظر الى ميلا وجسدها المتلىء ووجنتيها المتوقدتين وحاجبيها الجميلين وقال :

ـ الظلام دامس بعد انتهاء الدوام ، وسوف تكتسي الغابة بالجليد وهو امر محزن لي ، لانني لن ارى الجذور تحت الثلج ، لكن عندي من الجذور الكثير ، وبعد شهرين يفتتح المعرض في موسكو ، وآخذكما اذا وافقت والدتكما .

فأجابتا معا :

ـ ستوافق ، ستوافق .. امي تعرفك وتقول انك ساحر .

ـ لست ساحرا ، لكني غول في الغابة ، هذه الوظيفة لا تعطي أي مرتب ، لكن متطلبات الحياة ممكن الحصول عليها من الغابة ، وبدون مساعدة المقاطعة ، مثل جوز البلوط والفطريات .

قالت ليلى :

ـ غير صحيح .. انك لا تستطيع العيش بالفطريات والجوز

لوحدهما . فأنت تحتاج الخبز كما تحتاج مرقة اللحم .
ـ من الممكن عمل المرقة من الجوز ، كما ان جوز البلوط الد من اللحم بكثير .

وقفتا مشدوهتين .. وكانتا مشوقتين لرؤية مرقة الجوز .. واكل البلوط .. وبنبرة ملؤها الحذر سألت ليلى :
ـ هل انت جاد ؟

ـ طبعا ، انه لذيذ .. سنأكلين اصابعك وسترفضين كل أنواع المرقة الاخرى . كما ان البسكويت ممكن صنعه من الاشنات استعاضة عن الخبز .

اخترع نيكون كل هذه المأكولات .. وبينما كان يتكلم كانتا تتخيلان بلهفة اطباق مرقة الجوز وبسكويت الاشنات وتعتقدان انها حكاية ملذة واستطرد قائلا :

ـ اقترب الشتاء ويجب ان اجمع الاوراق الساقطة في الغابة كي اجعل عريني اكثر دفئا .. لاني اقضي الشتاء في العرين ، فهو هادىء ، وانام فيه حسب رغبتي فلا تلفون يزعجني ولا احد يوقظني.
سألته ليلى :
ـ ماذا عن ابنك ؟

ـ انه ولد ذكي ، لما علم ان والده قد احيل على التقاعد لم يحلم بازعاجه .

سألته ميلا :
ـ هل ستقضي الشتاء نائما ؟
ـ هل سمعتما غطيطي في الشتاء ؟ . لانه يزعج الجيران .. وقد كتبوا الى المجلس السوفييتي المحلي .. وقالوا اني القب بعفريت الغابة واغط غطيطا مزعجا .

بقيتا مدة طويلة ترقبان يديه الكبيرتين وعقدهما الكبيرة ، يدي صانع السفن الذي بنى الكثير من السفن وهي لا تزال تمخر عباب البحار .. تلك السفن التي تعمّد بمراسيم عظيمة من حيث تسحق على هيكلها قنينة شمبانيا ثم تبحر بهدوء الى اسفل كي تنغمر بالمياه بعد اجتياز البر ، ثم يطلق على هذا العمل الانساني اسم جميل ويبدأ التنقل من ميناء الى اخرى .

كان الكسي مهندسا بحريا برتبة ملازم يزور والده ايام السبت.. ويقومان بنزهة في شوارع المدينة ، ويستطيع المرء ملاحظة الشبه الكبير بينهما مع فرق واحد هو العمر .

كانت الاختان تعرفان الابن وتحترمانه كثيرا .. وهو بين الفينة والاخرى يقدم لهما الحلوى يخرجها من جيب معطفه الاسود ذي الازرار المذهبة والمقابض الكثيفة .

اخذ نيكون ولده ليريه مملكته ومسحوراته الجميلة ، غرفقصره الملكي ، المشرق في الصيف والمظلم في الخريف لان ثرياته تحتوي شموعا قليلة .. وقد تصدع البلور الاخضر واخذ يتساقط فوق رأسيهما ، ووقفت على قبعة الابن ذات الشريط الابيض والعقدة الفضية ، رأتهما ليلى وهما ذاهبان فصاحت :
ـ ايها العم نيكون .. اجلب لنا جنية خشبية .
ـ سأفعل ، اذا رأيت واحدة .

مرة لاحظ نيكون زوجا من هذه الجنيات ، فهي مخلوقات ذات نظرات شيطانية وزوج من الاذرع معدة لكل من يحاول ايذاءها ، لم تحلم الفتاتان الصغيرتان بايذاء هذه المخلوقات . لذا ادرجتاها ببطانيه .. انها تشبه الى حد طفيف جذور شجرة الوعر .

ذهبتا الى الغابة مع نيكون وولده ، كان الطقس باردا والاشجار تستقبل فصل الشتاء ، بفيرت اوراق شجرة البتولا الى اللون الاحمر الناري لكنها لم تسقط . قالت ليلى لاحدى الاشجار :
ـ مرحبا ايتها الشجرة !

فتحرك جزؤها السفلي .. وقد يكون هذا اصطلاحا متعارفا عليه ـ من يعلم كيف تحيي الاشجار من يمر بها ؟ ثم قالت ميلا لشجرة تنوب:
ـ مرحبا ايتها الشجرة !

فمدت الشجرة احد اكفها كالرغب .

فرت الفتاتان الرجوع الى البيت ، وفي طريقهما التقطتا بعض المخاريط لتصنعا منها ديكورا في عيد الميلاد بعد صبغها باللون الفضي أو الذهبي . بينما كان نيكون وولده يتوغلان في الغابة الجرداء ، قال نيكون :

ـ عندي قطعة من البتولا (شجرة القضبان) احب تحويلها الى غول خشبي .
ـ لا تقل مثل هذه الاشياء للطفلتين ، لانهما سوف تنذهلان نماما .

ـ انا صائب فيما افعل ، لاني احقنهما بمحلول يجعل خيالهما اخصب واوسع .. فالخيال هو الذي يجعلنا نحلق بعيدا ونتأمل الاشياء ، أو نحلق في الجو كي نقطع شعاع احدى النجوم لنرى كيف تبدو الاشياء التي يشبهها ، بعضهم قال انه يشبه الايس كريم .
ـ لو سمعك معلمو المدارس لما وافقوا على افكارك .

ـ معلمو المدارس يحبون مخلوقات الغابة لكنهم لا يرغبون البوح بذلك .. كما انك لم تصبح بحارا لو لم اطعمك محلول الخيال . انا لا اتكلم عما انت عليه الآن حيث تجلس الى المنضدة في الوزارة .. لانك كنت بحارا يوما ما ، وبقيت طوال الحرب تبحر خارج الوطن .. وقد استضافك نبتون(1) اكثر من مرة .
ـ صحيح كل الصحة .

وبينما كانا يمشيان في الغابة تكلم الوالد عن المعرض ، وأمل ان يذكر الناس بأن الطبيعة تزودهم بكل شيء ، ونحن لا نضع الا اللمسات الاخيرة على معطياتها .
قال نيكون :
ـ انا لا املك حفيدا ، وهذه غلطتك ، ولهذا اعتبر كل الاطفال احفادي .

مشيا الخطوات الاخيرة في الغابة الجرداء ، ووصلا الى حقل خال من الازهار ، ما عدا بعض الزهرات المتفرقة هنا وهناك ، كازهار الربيع والقنطريون العنبري ممتدا ليأخذ الدفء من الشمس الخريفية ، ازهاره زرقاء فاتحة كالسماء .

* * *

بعد شهر ، اغتسلت الغابة بزخة مطر ، وبدت الاشياء نقية ومتشابهة . واسراب الكراكي كسهام عديدة متجهة نحو الجنوب

---

(1) نبتون : اله البحر عند اليونان (المعرب)

تطير تحت السماء الرمادية ، ووفى تيكون بوعده فدعا الطفلتين وامهما الى المعرض الذي قصدنه صباح يوم الاحد ، وكانت الام شديدة الاعجاب بأعمال تيكون الذي قلب افكار الطفلتين رأسا على عقب .

وقف تيكون في المعرض قريبا من معروضاته التي كانت معلقة على الجدران والموائد وكان بين المعروضات جنيات البحر ذات اليدين المفتوحتين للاطباق على كل من لا يعرف السباحة . وغول الغابة القديم ذو الوجه الحصاني المغطى بالبثور ..

كان على كل منهن ان تقف وتنظر ثم تستغرق في النظر الى قطعة الجذور ذات الفروع الشعرية لتفهم كم هي قريبة الشبه بعواطف الانسان ، تفرجن على كل اعماله ، فاتبهرن لما يتمتع به من خيال خصب ، كما ان الضوء الخافت في المعرض اعطى معروضاته نوعا من الغرابة . لكنها تبقى واضحة ومفهومة لكل من يستطيع ان يحيي شجرة بأن يقول لها « صباح الخير ايتها الشجرة » وتجيبه الشجرة بحركة خفيفة لاحد اغصانها ، أو حتى امتداد احد اكفها الذي يشبه الزغب .

في اليوم التالي ، رأت الفتانان تيكون كما اعتادتا ان ترياه في المدخل ، واقفا والغليون بين اسنانه .. انه يبدو للناس العاديين شيخا يدخن غليونه .. لكنه بالنسبة للفتاتين امبراطور الغابة مع مملكته المتكونة من الطيور والارانب الوحشية والفيلان الخشبية وجنيات البحر .. كان يقف كما لو كان واقفا في مستهل حياتهما ممسكا بابريق ذي محلول خارق .. وكانت الدهشة عظيمة لمن يأخذ جرعة من هذا المحلول .

فالتا معا :

ـ مساء الخير يا تيكون !

اخذ الغليون من فمه واجاب :

ـ مساء الخير ، ايتها الطيور الراقصة .

ذهبتا وهما تتلفتان وتنظران اليه ، فلوح لهما بيده

في هذه المرة لم تكونا تركضان وتقفزان كما تفعلان دائما ، بل لوحتا بأيديهما برزانة ووقار .. لا احد يفهم ما عمله تيكون للفتاتين ما عداهما (١) .

ترجمة حلمي نجم

كلية الطب ـ الموصل

(١) مترجمة عن مجلة « الادب السوفياتي » ، العدد ٤ سنة ١٩٧٤

المثنى الشيخ عطية

عثار في بقعة ضوء

(١)

تسنين ـ بيني وبينك ـ
دربا من الشوك دنسته بالشرائع ،
وأضفيت همّ الوصول اليك .. الجنون
وألقاك لافتة فوق كل الجهات
تراودني للتلاشي بها الخضرة الدائمة ..
تسنين ـ بيني وبينك ـ
نهدا تكابر ،
خصرا تكابر
وعبنين زاغت بقلبيهما القشرة الآسرة ..

(٢)

تلوحين لي في رحيلي اليك
طمأنينة ،
دعوة للتلذذ بالطيبات .
وصولي اليك
احتراق المراحل
تلوحين لي ثم ها حلل الدمع
قصر الدروب اليك
النجاة ممات
مداعبة اللغم لا تمنع الانفجار
البحار التي تمنح الحبّ ،
لا تمنح الحب الا بسبي الشواطىء ..
تلوحين لي ثمّ
وجهي تقسّم
او قاسمته الدروب اصطفاءه ..

(٣)

وبيني وبينك ..
بيني وبين الدروب اليك
الحكاية ..
ثور من الذهب العالمي
الحكاية .. نفط من الذهب العربي
الحكاية .. قهر الجموح ،
مكابرة الرأس
أن يُسلم الحجم للخوذة الحرب ،
بيني وبينك
حرب بحجمي ، وحرب بحجمك
حب بحجمي ، وحب بحجمك
حلم تساقط ، جمّدته ثم امسكته ..
أنت ...
لن تقهري داخلي ..
داخلي شهوة الانسنة ..

حلب ـ سوريا